

على رصيف شارع السلسبيل، يتجمع الباعة الجوالون في صف ممدود، متباينة أشد التباين، بين حلوى وأربطة للرقبة وبطاقات زيارة، أطفال، إلى غير ذلك من مختلف الشكول والألوان. وإن هؤلاء الباعة ليتصدون للسابلة الذين يجوزون بهم في الطريق، فيرددون أمامهم 5 نداءات متشابكة مهوشة، لا تستطيع أن تميز لها معنى. بيد أنهم يُصيبون بها أطيب الكسب. فليس ثمة من حوانيت يُؤدون أجزتها في كل شهر، وليس وراءهم من ضرائب يفرضها عليهم السادة المحاسبون في كل عام. ولم يكن ينغص عليهم حياتهم هذه إلا أن يلوح لهم رَجُلُ الشَّرْطَةِ، 10 ولكن يبدو أن رجل الشرطة على حدة ذكائه وواسع خبرته لم يكن يُصادفه التوفيق في تصيد أحد من هؤلاء الباعة الجوالين. تبلغ الباعة قبل أن يبلغ مكانهم بقليل، فيطوون بضاعتهم على عجل، ويتسللون بها لوأذا في معاطف الطرق. لقد تخلفت عند هؤلاء الباعة حاسة سادسة، لك أن تسميها حاسة: تشتم الشرطي، فإذا بدا الشاويش، في الشارع لم يجد على الطوار إلا الذاهبين والآيبين من خلق الله. وكان رجال الشرطة يتعاقبون على الشارع، لكل منهم نوبة في وقت معلوم، فلما على نوعية الشاويش جاد الله، هاله ما سمع من أن رفاقه من الشرطيين لم يتح لأحد منه هذا الشارع العامر بالقصران النظام، وأقسم أن يسوق المركز الشرطة طلبته من هذا النقر الخارج على الا واعتزم العمل وتواردت الأيام، دون أن يلقي الشاويش أي نجاح. لهذا الأمر. ولكن من أين له أن يعلم بأمر هذا الراصد والرادار، الكامن بين جوانحهم المرفهة، ووقع خطاه الثقيلة، قبل أن والمحلت جهوده في أن يصيب صيدا في هذا المكان، وكان ضمن هذه المجموعة الطريفة من الباعة الجوالين، غلام قميء مهلهل النياب لا يعدو العاشرة من عمره، له حذبة تكاد تبتلع ظهره، يبيع نوعا من الحلوى يسمى نبوت الخفير، معلق بحبل في رقبته. 35 هذا الغلام الأحذب يعيش في كفالة معلمه: رجل أشيب بلغ أرذل العمر، مقوى محتقن الوجه لإدمانه الشراب، تتكاثر على جبينه الغصون. الثنايا في الجلد يعتمد في سيره على عصا ضخمة، كثيرا ما اتخذها للصبي سوط عذاب. وكان الغلام يدعوه أباه، دون أن يعلم من معنى الأبوة والبنوة غير أمرين: غلطة وشراسة من جانب «الأب» وخوف وكره من جانب الأب. 40 سارت الأمور! على أن هذا «الأب» أو بالأحرى المعلم لم يكن يجيد في حياته إلا أمرين: غطيطة عاليا مفزعا يردده في فترة نومه. وبصقات متوالية يقذف بها من فيه في الناهصحوه. ويقتضينا الإنصاف أن نذكر له عملاً آخر برع فيه براعته في عمله السالفين: نلكهو صنعة الحلوى البوت الحضيرة فقد عمل هذا التكبير الفكر الوجه في الاله الباكر في مصنع للحلوى وهو يتحد اليوم هذه الصناعة مودة بقوت به. اله يصنع هذه النيابيت السكرية، في وقت قرائله، أعلى وقت عودته إلى القار من حمارته المألوفة، فراغه. وعذر العلام واضح في هذا الثناء، فإنه لم يذق المشهد مرة في حياته، وكذلك لم يطعم نبونا أو كسرة من نبوت مما يحمله، فأدناه إلى لسانه الخل المنطق، بغية أن يتعرف ما هوولكنه ما كاد يلعبه حتى أدركته مرارة المعلم، كما حرمة الجلوس بضعة أيام. ومنذ ذلك اليوم لم يعد الأحذب الصغير يفكر في هذه النيابيت، وظلت علاقة العلام بصندوق حلواه كعلاقة ذلك الحمال المقدم الذي ينقل صناديق النقود بين المصارف ودور الحكومة تحت الرقابة الصارمة لرجال الشرطة. إنه يحمل الكنوز، واتخذ الغلام مكانه في سمط الباعة الجوالين على طوار، أو على الأصح من غدر رجل الشرطة، فالقدر كان في مخيلة هذا الأحذب القميء يبدو دائما في حلة سوداء، لها أزرار صفراء، يلمع إبزيمة النحاسي في وهج الشمس التماعا يعيش الأبخار. 65 وأصبح الغلام على الرغم من تفاهته وتفاهة بضاعته وتفاهة صوته الضائع في جلبه هذه السوق، واحدا من هؤلاء الباعة الأصلاء، له مكانته، وله رواده من المشتريين، وله أيضا صرة من نسج أسود قدر يدعوها بالكيس، النهار، فيحاسبه على ما باع من الحلوى وما تبقى. وكان طبيعيا أن يتخلق في قرارة نفس الغلام ذلك «الراصد (الرادار) لكي يحميه 70 ويهديه، لا يمسسه سوء. جدار المبني الشاهق، وقد ترك وهو وهي تلقى مصرعها جملة بين أضراعة القائمة فعلو لها صحة تشبه دق الأحجار، وظلت وقات الأحجار تتوالى ويحكم صوتها في وفتح العلام حقيقه، فكانه كرة قنات بين وهو محشور في حلته السوداء فان الأزرار الصفراء، بأخذ بخناق طوق قميصه المخ، ولم يلبث أن قفز خلف الغلام يلب والبان 85 الجبارة، ويقرر الطوار بحذائه الضخم، الناس بشر مستطير. ثمة سباق خطير بين واندفع يجد في أثر الغلام، دودة، وإذا «الحذاء الأسود القمر 90 يُدركها. وبسط «جَادَ اللهُ يَدَهُ، فَالْتَقَطَ الهناء، وصاح بها في صوت الظفر الغلاب إلى القسم يا ولد! وتجاوبت أرجاء شارع السلسبيل بكلمة «القسم» وما أسرع أن تكالبت السائلة حول جاد الله والصبي الأحذب، فَضَرَبَتْ حَوْلَهُمَا نَاطِقًا. 95 الشاويش لم أفعل شيئا. فقال الرجل وقد اهتز شاربه المشربب المسنون: وبضاعتك التي تبيعها بلا رخصة؟ ورمى ببصره إلى ما يسميه بضاعة، فَزَعَقَ يَقُولُ: أين الحلوى يا ولد! 1 وعاد العبي ينتج وتولول قارية. والله با جناب الشاويش، لم يكن معي هية. وضمهم بعض الحاضرين يقول قد يكون، أخطأ القصد. إن الولد لم يكن يحمل فيقا. وازدادت العميمات والحمدت، والشاويش، وعلا وجهه عبوس، على حين كان الأحذب الصغير يمسح فمه ليزيل عنه ما وتحمس بعضهم يقول: علق به من بقايا و نيابيت الخفراء،